فى مثل هذه الليلة

(بقلم الدكتور محمد غلاب)

فى مثل هذه الليلة منذ أربعة عشر قرنا وثلث تقريبا ، قد انشق - فيما تحدثنا بعض المأثورات الاسلامية - ايوان كسرى ، وانطفأت نار فارس ، وغاضت بحيرة ساوى . ولم تفطن الكافة من المسلمين الى ماتحتويه هذه العبارات من رموز دقيقة ، وما ترمى اليه من مغاز بعيدة تفتن العقول، وتسحر القلوب ، بل فهمتها على ظواهرها البدائية ، وأخذتها على حرفيتها الساذجة . وقد استولى بعض المستشرقين على هذه الرواية ثم شنوا عليها غارات عنيفة من النقد والتجريح ، فأعلنوا ان هذه الاحداث الثلاثة لم تقع فى جملتها ولا فى تفصيلها . وانما هى خرافات نسجها المسلمون حول نبيهم كتلك الاساطير التى حاكها قدماء الهنود حول بوذا ، أو الفرس حول زرادشت . ولا ريب أن هذا النقد من جانب أولئك المستشرقين مؤسس على الجهل والسطحية ، مبنى على أنه لا يوجد شىء فى الكون وراء الظواهر الملموسة . ولو انهم تنبهوا الى ما ترمز اليه هذه الرواية الاسلامية ، ونفذوا ببصائرهم الى أعماقها ، لاهتدوا الى أن هذه الاحداث الثلاثة قد تحققت رأى العين ، وبرزت على مسرح الوجود بروزا واضح المعالم ، ناصع القسمات ، وأن التاريخ قد سجلها بحروف النور والخلود تسجيلا يدعو الى الفخر والمباهاة ، لا الى النقد والتشهير . ولكن لا يعقلها الا العالمون .

قل للذى يدعى فى العلم معرفة عرفت شيئا وغابت عنك أشياء

وبيان ذلك أنه فى تلك الليلة العملاقية سمعت الارواح النقية صوت الاقدار يهتف عاليا مدويا : « **أيتها البشرية ، لقد شرف الله كوكب الارض فى هذه الليلة بوليد جديد لم يخلق الله له ندا بين بنى الانسان سيجرى قلم القدرة الالهية على يديه تغيير وجه التاريخ . وسيكون مولده حدا فاصلا بين ماضى الانسانية ومستقبلها . وسيعلن عقيدة التوحيد التى ستقضى على عبادة النار المجوسية . وسيدعو الى دين الديموقراطية الحقة الذى سيقضى على طغيان كسرى وجبروته ، فيكون مولده انذارا بتشقق ايوانه ، وتصدع تاجه الذى هو رمز الصلف والغطرسة . وسينشر**

مبادىء العدالة والمساواة التى هى بمثابة النهر العذب الفرات الذى سيحل محل البحيرات الملحة التى كانت الانسانية تغص من مائها أثناء عهود الطغيان والجبرات ٠

واذن فلم تكن تلك المأثورات تتحدث عن ظواهر مادية ، ولا تنبىء بوقائع حسية كما فهم الكافة من المسلمين ، والجهلاء من المستشرقين ،وانما هى رموز لأحداث تاريخية تحققت فيما بعد على يدى هذا الوليد العظيم، وكانت غررا ناصعة فى جبهة التاريخ البشرى ٠

فى مثل هذه الليلة اهتزت الكرة الارضية اهتزازا عنيفا ٠ ولكنه ليس ماديا كهزات الزلازل والبراكين ، وانما هى حركة معنوية قوية تغلغلت آثارها فى أعماق النفوس ، واتصلت معانيها بحبات القلوب ، فجعلتها تحس احساسا قويا صادقا بأنه قد بزغ الليلة فى سماء الوجود الانسانى هلال وضاء لا نظير له فى عالم الكائنات ، وأنه حين يكتمل نوره ويصير بدرا ، ستلتهم أقباس أشعته الحادة اللامعة فحمة هذا الظلام الدامس الذى شمل الكون وخيم على الوجود ٠ وقد سمعت الارواح فى تلك الليلةصوتا عاليا ينبعث من عالم المعنويات مناديا : يا رواد العلم والمعرفة ، ويا طلاب الهدى والرشاد ، ويا أنصار الرقى والمدنية ، ويا عشاق الاخلاق والفضيلة، يا هؤلاء جميعا طيبوا نفوسا ، وقروا عيونا فقد تحققت آمالكم ، وصحت أحلامكم ، ووضعت الاقدار الليلة الحجر الاساسى فى بناء معقل أمانيكم الجليلة التى طالما فاضت بها النفوس ، وجاشت بها الصدور ، ذلك لان آمنة بنت وهب بن عبد مناف أرملة عبد الله بن عبد المطلب زعيم قريش وسيدهم قد قذفت الليلة الى معترك الحياة بطفل خطير سيجتمع له من مكارم الاخلاق وجلائل الصفات ما لو نشر جزء منه على آية الليل لمحاها وأحالها الى ضوء يعشى العيون ، ويفرق الحدق والجفون ٠ ستجتمع لهذا الوليد صفات الصدق والامانة ، والحلم والحياء ، والمروءة والسخاء ، والشهامة والوفاء ، وحسن الخلق ولين الجانب ، ورقة الشمائل وطلاقة المحيا وقوة العزيمة ٠ سيجتمع له كل هذا ، وسر آخر لا أريد أن أبوح به الآن ، وانما كل ما يمكننى أن أقوله هو : أن حياته ستكون آية الآيات ، ومعجزة المعجزات ٠ ولو أن القياصرة والأكاسرة عرفوا أن هذا الطفل الذى ولد الليلة سيكون هو القدر المحكم ، والقضاء المبرم على سلطانهم وجبروتهم ، لفتشوا عنه فى كل مكان ، ولبذلوا الغالى والنفيس فى سبيل الحصول عليه ، لكى لا تعدوا على ممالكهم العوادى ، ولا تدور

على امبراطوريتهم دوائر الايام . ولكن القدر يريد أن يغير وجه الزمان ، وأن يرسل الى هؤلاء الجبارين طوارىء الحدثان ، وأن يدير عليهم بيد هذا الوليد رحا الدهر الطحون ، وأن يثير على ضلالاتهم عواتى الريح الزبون . فشاءت ارادة الله أن تكون مكة محط الرحال ، ومنبت الآمال ، ومنبع الرحيق السلسال ، ومهبط النور والجلال ، ومصرع الجبارين والأقيال .

ألا تدرون لماذا ؟ هـذا هو السر الذى لا أريد أن أبوح به الآن . ولو درى عظماء مكة وأبطالها أن وليد الليلة اليتيم الذى لا ناصر له فى الظاهر ولا معين ، ولا ثروة عنده ، ولا قوة لديه ، سيدعوهم يوما الى ترك تراث آبائهم الأولين ، واعتناق ما أتى به من الحق المبين ، والصراط القويم ، وأنه سيقيم لهم أنصع الحجج وأسطع البراهين على تسفيه أحلامهم باتباعهم خطى أسلافهم الغابرين بلا تفكير مستقل ولا منطق سليم ، وأنه سيدعوهم فى رفق ولين الى ما آمن بأنه الحق الذى لامشاحة فيه ولا مماراة، فيضيقون ذرعا ، ويتبرمون بما أتى به ، ويسخرون منه ومن أنصاره أول الامر . ولكنهم لا يلبثون أن يروا نجمه آخذا فى التألق واللمعان ، وحظه سائرا الى التقدم والرفعة . فعند ذلك يشعرون بخطورة الامر ، وحروجة الموقف . ويحسون بأن التهكم والسخرية لا يجديانهم نفعا ، فيصممون على عمل حاسم ، فيرسلون اليه من يساومه على مال أو جاه أو سلطان ، فيرد على رسولهم بهذه الآية الجليلة المخيفة : « **فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** . » فلا يسع هذا المساوم الا أن يتراجع خوفا وفرقا ، ويمتقع ارتجافا وذعرا . فيتجهون الى عمه أبى طالب منذرين متوعدين . فيطلب اليه التخلى عن هذا الدين الجديد ، فيجيبه فى قوة ارادة وصلابة عزيمة بهذه الجملة الهائلة التى تزن كل ما فى العالم من جمل وكلمات ، وهى : « **والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، لا أترك هـذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك دونه** » . فاذا استيئسوا من اقناعه ، وفشلوا فى ارجاعه الى صفوفهم ، أخذوا يدسون له ويكيدون ، وجعلوا عليه يحنقون ، وبه يتآمرون . فهجر مسقط رأسه، ومستنشق أول أنفاسه ، ليطلب المعونة فى غير هذه البيئة القاسية ، وليبحث عن قوم أرق قلوبا ، وأنبل شعورا ، وأصدق احساسا . ولا يلبث أن يعثر فى يثرب على ضالته المنشودة ، وغايته المقصودة ، ثم يعود بعد بضعة أعوام الى مكة فيدخلها دخول الفاتح الظافر ، ويستولى عليها استيلاء المنتصر القاهر . واذ ذاك يحطم أوثانهم ، ويهشم معبوداتهم التى

كانت الى الأمس القريب معظمة مبجلة . واذ ذاك ينحنى أمامه عظماؤهم ومتكبروهم الذين كانوا يرون منذ زمن غير بعيد أنه لا يستحق منهم نظرة ولا لفتة . وسوف لا يقف الامر عند هذا الحد ، بل سيصبح أبناء أعدائه من أشد الناس ايمانا بما جاء به ، وأكثرهم دفاعا عنه وانتصارا له ، وأن بعض هؤلاء الابناء سيكونون خلفاء مبجلين ، والبعض الآخر ملوكا متوجين على الامبراطورية العربية التى سيخلقها هذا الوليد من عدم ، وينشئها من اللاشيء ويخضع لها أقصى الامم ، وأدنى الشعوب فى الشرق والغرب

أقول : لو درى أهل مكة عاقبة هذه السعادة الشاملة ، وتعقلوا الامور كما ينبغى ، لاستبدلوا عنفهم بلين ، وقسوتهم برحمة ، وحنقهم بهدوء وارتياح ، وحقدهم بمحبة واحترام ، وسخطهم برضى واغتباط ، ولأجلوا هذا الهادى من أعماق نفوسهم ، وعظموه من كل قلوبهم ، ولكنهم لايدرون، وسيدعو لهم هذا الوليد بقوله : « **اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون** » .

أفتدرون لم كل هذا الانقلاب الغريب ؟ انه نقطة السر الهائل الذى سيهز الكرة الارضية كلها ، بل ستتصل جلجلته الى عالم السماوات . انه ذلك السر الذى سيجهر به ذلك الوليد بعد أربعين عاما حين يتلقى الامر الأعلى الذى يقول له : « **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** » وحين تبلغ شهرته أقصى الآفاق ، وتسمو على مسارح الافلاك ، وتقضى القضاء الاخير على كل مضلل أفاك .

هكذا كان يقول الصوت الخفى الذى نادى الناس فأسمع منهم الأفئدة والارواح دون أن تدركه العيون أو تسمعه الآذان . وقد كان كل ما تنبأ به هذا الصوت الخفى ، فدعا محمد الى أرقى الاخلاق ، وأنبل الفضائل ، وشرع أصلح القوانين وأخلدها على الدهر ، وأوفقها بأحوال الامم . وروج لدين لا أريد أن أصفه بأكثر مما وصفه به العلامة مؤلف كتاب « دراسات فى التاريخ الدينى » اذ قال : « ... ومن جانب آخر ينبغى أن نذكر أن الدين الاسلامى مخالف كل المخالفة لهذه الابراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة ، لان فيه قوة كامنة وصلابة ومتانة تجعله قادرا على المقاومة قدرة تامة » . الى أن قال : « وفى الواقع ، فبماذا يمكن أن يهاجمه النقد ؟ أفى تاريخ محمد ؟ انه تقريبا خال من الخوارق والمدهشات ، وليس فيه تقريبا من المسلمات الا ما فى الديانة الكاثوليكية من معتقدات طاهرة نقية . فهل توجد هذه الخوارق فى الشعائر والطقوس ؟ انك لو رجعت

بالدين الاسلامى الى قواعده الأصلية ، ومبادئه الأساسية لما وجدته قد زاد على الدين الفطرى الا نبوءات محمد وادراكا حقيقيا وفهما صحيحا لمعنى القضاء والقدر ، وهذا الفهم الصحيح للقضاء والقدر يعتبر صفة عامة لكل الذين يدركون بقوة عقولهم ، ودقة شعورهم انهم فى احتياج شديد الى أن يسيروا فى هذه الحياة بنظام دقيق وخطة محكمة أكثر مما يعتبر عقيدة من العقائد ، أو أصلا من أصول الايمان الى أن قال : « ان للمرء الحق المطلق فى اختيار أى مذهب من المذاهب الاربعة التى تسود فيها حرية الرأى بأجلى مظاهرها ، وأدق معانيها · أما العبادات والشعائر الدينية المستخلصة من اعتقادات ثانوية فلا يمكن أن تقارن من جهة البساطة الا ببساطة البروتيستانتية التى هى عبارة عن الاعتقادات الطاهرة النقية ، والاصول الصادقة الصحيحة التى هى فى الكاثوليكية » الى أن قال : « وانى أعتقد أن الشرق اذا تغلب على جموده ، وتخلص منه فان الاسلام لن يضع أية عقبة جدية فى سبيل التفكير الحديث ··

ولقد أتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعا أن يأتوا بسورة من مثله ، فقعد بهم العجز ، وشملتهم الخيبة ، وبهتوا أمام ذلك الاحراج القوى الذى أقفل فى وجوههم كل باب · وأريد أيضا أن أستعيض لك هنا عن رأيى فى القرآن برأى الاستاذ المستشرق « ليبون » فيه حتى تثق بأن هذا الرأى مبعثه النزاهة والاخلاص ، لا التعصب والعناد ··

وهاك عبارته :

« حسب هذا الكتاب جلالة ومجدا أن الاربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف - ولو بعض الشىء - من أسلوبه الذى لا يزال غضا كأن عهده بالوجود أمس » · ولم يكن هذا النبى الجليل داعيا للآخرة وحدها بل أمر أتباعه أن يأخذوا بنصيبهم من هذه الحياة ، فكان كما يقول الاستاذ « بلانشيه » المستشرق الفرنسى المشهور : « ان النبى محمدا يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ ، فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة ، وهى : **أن أحيا شعبا ، وأنشأ امبراطورية ، وأسس دينا** » ·

هذا ، وان أضعاف صفحات هذه المجلة لا تتسع لذكر بعض صفات هذا النبى العظيم وما أثره ، غير أننا آثرنا أن نأتى فى هذه المناسبة الجليلة العطرة - بهذه العجالة الوجيزة لنقوم بجزء ضئيل مما هو فوق عاتقنا ·

« **محمد غلاب** »